معرض يحكي قصة صورة «البطل الثائر» تشي غيفارا وتمظهراتها في زمن المقاومة والعولمة

التقطها المصور الكوبي البرتو كوردا.. وصارت اشهر صورة في تاريخ التصوير البصري من حيث القولبة واعادة الانتاج

ابراهيم درويش*

■ لم يكن مصور الازياء الكوبي البرتو «كوردا» دياز (1928 ـ 2001) يعلم ان الصورة التي التقطها في الخامس عشر من اذار (مارس) 1960 للثائر العالمي ارنستو «تشي» غيفارا (1928 –1967) ستصبح اشهر صورة في التاريخ الفوتوغرافي من ناحية القولبة واعادة الانتاج والتفسير.

الصورة التقطت اثناء جنازة للشهداء الذين ماتوا اثناء الحرب الثورية الكوبية ضد نظام باتيستا الديكتاتوري، في تلك المناسبة ظهر غيفارا وزير الصناعة الكوبي في حينه على المنصة، والتقط له كوردا صورتين وعلق عليهما ان تقاطيع وملامح غيفارا كانت تعبر عن «غضب والم» في نفس الوقت. كما تقول ادبيات التاريخ الفوتوغرافي، فالصورة التي التقطها كوردا الذي اصبح مصورا لفيديل كاسترو. لم تنشر في اعداد المجلة الرسمية «ريفيليوسين» (الثورة) وبعد تحميضها واعدادها علقها كوردا على جدار ستديو التصوير الذي كان يملكه، وربما وزع بعضا منها على زواره ومن بينهم اليساري الايطالي جيانجياكو فليترنيللي، الذي زار كوبا في تلك الفترة، والذي سيكون شخصية محورية في تحول الصورة الى ظاهرة عالمية. وهناك تكهنات بأن جان بول سارتر الذي زار كوبا وحضر الاحتفال المذكور مع سيمون دي بوفوار والتقى مع غيفارا وزير الصناعة وربما قدم له كوردا نسخة منها لكن ابنة المصور الذي توفي في باريس لا تذكر ان والدها اعطى سارتر نسخة منها لان زيارته لبعض المناطق خارج هافانا تم ترتيبها على عجل ولذا فامكانية تقديم نسخة تبدو بعيدة.

الصورة المقصودة هنا هي صورة (Guerrillero Heroico) (البطل الثائر) التي يظهر فيها تشي بالبيريه المزينة بالنجمة ولحيته غير المشذبة وشعره المنسدل، وعيناه اللذان تنظران في البعيد ربما لمستقبل الثورة العالمية التي حاول تطبيقها بعد تخليه عن الجنسية الكوبية وسفره للكونغو ومنها الى بوليفيا التي اغتيل فيها. لم تظهر الصورة وتوزع بشكل عالي وتدخل ما يعرف في يومنا هذا «ايقونة» الا بعد ان وردت الانباء عن اعتقال ارنستو تشي غيفارا واعدامه حيث كانت اخر كلمات قالها لقاتليه «اطلقوا النار، ايها الجبناء فلن تقتلوا الا رجلا» مما يعني ان الفكرة التي دعا اليها ستعيش.

دخلت صورة تشي غيفارا الوعي العالمي عبر عدد من المراحل، فهي وان انتشرت في اوروبا بسبب اليساري الايطالي الا انها ظهرت على اغلفة المجلات مثل «باري ماتش» في فترة قبل مقتل الثائر غيفارا. ولكن ثورة الطلاب الفرنسيين، كانت واحدة من التمظهرات التي دخلت فيها الصورة الوعي العالمي، حيث استخدمها الشبان كرمز للثورة ضد المؤسسة. ولكن الصورة ستدخل في فترات لاحقة عالم ثقافة الشباب خاصة الجيل الذي ولد فيما بعد الحرب العالمية الثانية ووجد في الصورة التي ربما لم يعرف الكثير من الشبان شيئا عنها، نتفا من هنا وهناك عن ثائر دولي او مقاتل للحرية، وبالتأكيد لا يعرف الا القليلون صاحب الصورة الاصلية، التي وللحق يقال لم ينل عنها اي فلس، حيث ضاعت حقوقه لان كوبا ليس لديها حقوق ملكية ولان كوردا وان شجب اساءة استخدام الصورة الا انه تسامح او لم يهتم كثيرا مع الذين ارادوا استخدامها من اجل التعبير عن جوهر الافكار التي قاتل من اجلها الثائر اللاتيني، فهو وان ولد في الارجنتين، الا انه كان يحلم بأمة لاتينية واحدة تجمع كل شتات الدول والكينونات في هذه القارة الكبيرة.

ورحلته عندما كان طالبا على مقاعد الدراسة عبر جمهوريات امريكا اللاتينية اكدت اهمية الوحدة، فقد كانت تجربة ثرة سجلها في رحلته الشهيرة «يوميات دراجة»، مع صديقه البرتو غرانادوس الذي قضى معظم حياته في كوبا واخرجها البرازيلي وولتر سالس عام 2004 في فيلم ساهم في تعزيز صورة الثائر. صورة تشي غيفارا اذن تمت قولبتها، كصورة عبر ثقافة المقاومة، وثقافة العولمة، وهي اول ايقونة في التاريخ، تفقد الكثير من مميزاتها الاولى، باعتبارها صورة عن المقاومة ضد الامبريالية والاستعمار، ويتم استثمارها في ثقافة العولمة، اذ ان فترة التسعينات التي انشأت ما اسمته الكاتبة في قضايا ثقافة العولمة نعومي كلاين ثقافة جديدة هي «مارسالا» هجين بين الجنوب والشمال، فيما حاولت الشركات العملاقة العابرة للقارات، نايلك، ريبوك، ... البحث عن وسائل جديدة لجذب الجيل الذي ولد فيما بعد الحرب العالمية الثانية لمنتجاتها وبحث عن مظاهر جامعة تتجاوز اللون والجنس والثقافة ولهذا لعبت صورة تشي غيفارا هذه ومن بين صوره الكثيرة، دورا مهما في تشكيل هذه الثقافة.

ويعتقد الباحثون في ثقافة الصورة المرئية ان صورة «البطل الثائر» تؤرخ لتحولات الصورة في الاربعين عاما التي مضت. والصورة تظل بمثابة قصة نجاح كبيرة لان تشي غيفارا او على الاقل صورته ظل قابلا للتطويع، الحذف والاضافة، التشكيل، من خلال الخطوط او النقاط او عبر الكاميرا والديجتيال، او من خلال الفن المجرد او فن «البوب» الذي وجد اهم تجلياته في اعمال الفنان الامريكي المعروف اندي وورهول. كما ان تشي غيفارا وفي مرحلة ما بعد التسعينات صارت تعبيرا عن «ثقافة الموضة» اذ تسابق العديد من مصممي الازياء لادخالها او الارتكاز عليها في مجموعاتهم التي قدموها للشباب ومن هنا فتشي لم يعد الثائر الداعي للانقلاب على العالم واعادة تشكيله بقدر ما صارت صورته تعطي الكثيرين صورة عن الشياكة والاناقة وعن التعايش في عالم ثقافة العولمة. وما دامت صورة تشي غيفارا دخلت عالم الايقونة اكثر من صورة في تاريخ التصوير، فهي اكثر شهرة من صورة السيد المسيح، ومن الموناليزا فان الايقونة ولدت ايقونة جديدة، احتفظت بالاطار العام للصورة الاصلية وبنت عليها مسخا جديدا، مثل بوش او بلير او ايقونة جديدة، فهناك «تشي اسامة بن لادن»، وهناك تشي الفلسطيني، وتشي الفيتنامي، والصيني، تشي الذي تماهى مع صاحب الزحف الكبير والثورة الثقافية وهناك «تشي دايانا» الاميرة البريطانية. تشي غيفارا في صورته وشكله المتغير هو تعبير عن الثقافة الشعبية، العابرة للحدود، الصورة القابلة للتلاعب والتغيير والعبث، والتفسير بحسب السياق الاجتماعي او الثقافي، الثوري او الشبابي، وصورة كهذه موجودة في الوعي الشعبي العالمي دون وعي احيانا بالتفاصيل الشخصية عن الثائر او الاهداف التي قاتل من اجلها، فهي موجودة على جدران احياء التنك والصفيح الافريقية، معلقة على لافتات كبيرة قرب شبكة كبيرة من شبكات الاسلاك الكهربائية في المكسيك وفنزويلا، على جدران زنزانة في كوبا، على حائط متوحد في بيت لحم، على ملابس داخلية لعارضة ازياء، على قميص في مجموعة مصمم فرنسي، وهي معلقة على جدران الغرف الداخلية للطلاب في الجامعات، وهي ايضا تتمظهر في تفسيرات دينية، مثل العشاء الاخير للسيد المسيح او عوالم سوريالية وواقعية عبرت عنها رسومات المكسيكية فريدا كاهلو، وقد حاول فنانو امريكا اللاتينية الجمع بين العناصر الثورية في حياة تشي غيفارا/ صورته وبين المكون الديني الثنائي، المسيحي والوثني لثقافات المايا والازتيك. وفي هذه الاعمال يتساوق السيد المسيح/ الصورة مع الثائر تشي غيفارا على الرغم من ان الاخير اكد انه على نقيض السيد المسيح ورسالته الداعية للسلام حيث كتب مرة قائلا «انا نقيض السيد المسيح.. سأقاتل بكل سلاح لدي بدلا من ان ادق بالمسامير على صليب». كل هذا مقبول في الفهم الثقافي لمعاني الصورة، ويحدث احيانا في طريقة تعامل الفنان المحلي مع ايقونة او رمز عالمي، ولقد لوحظ ان الطريقة التي تعامل فيها رسامو البوستر مع صورة اسامة بن لادن، زعيم القاعدة مثلا انها اخضعت للسياقات المحلية، فهو يحمل ملامح اسيوية في بوسترات تلك المنطقة، ويقترب من صورة الشهيد القسام في بوسترات فلسطين ويحمل ملامح لاتينية في اعمال هذه المنطقة.

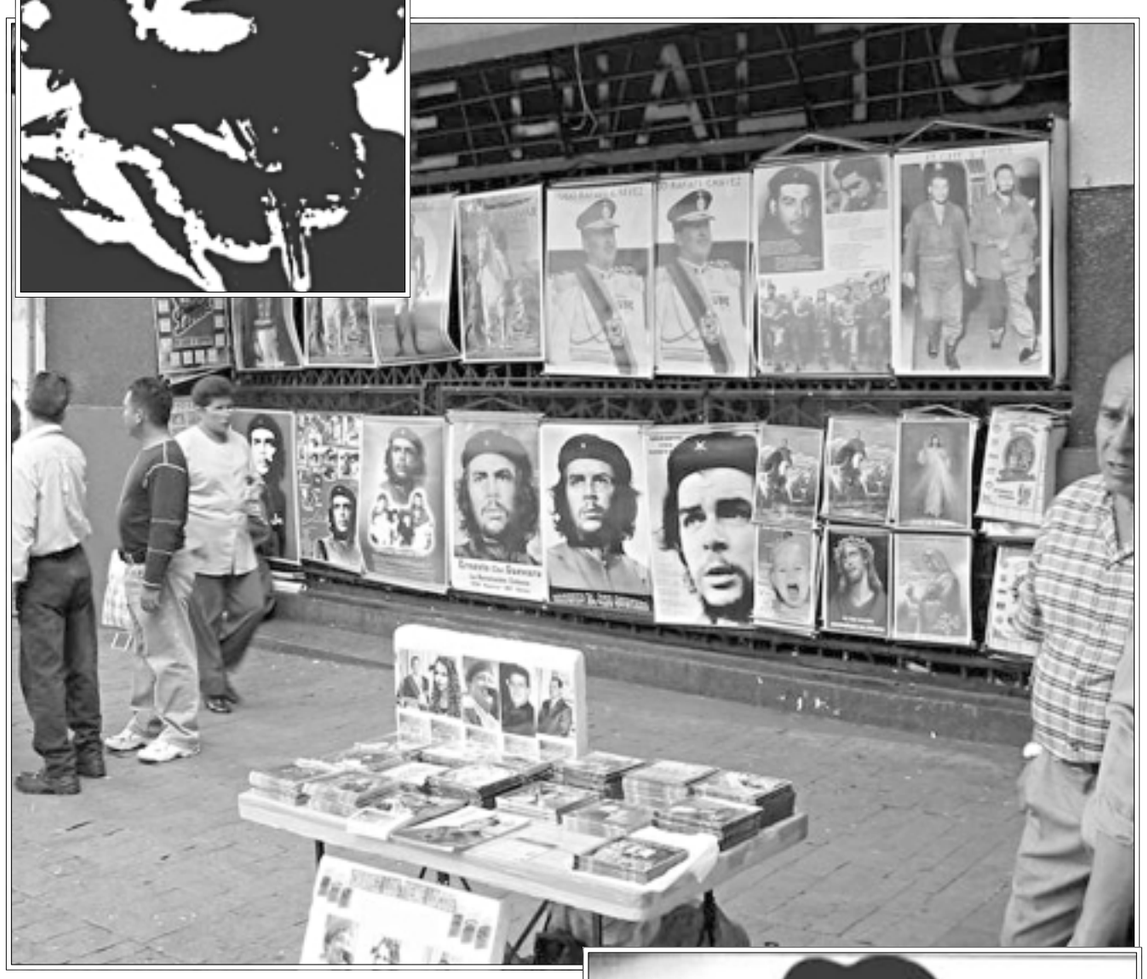

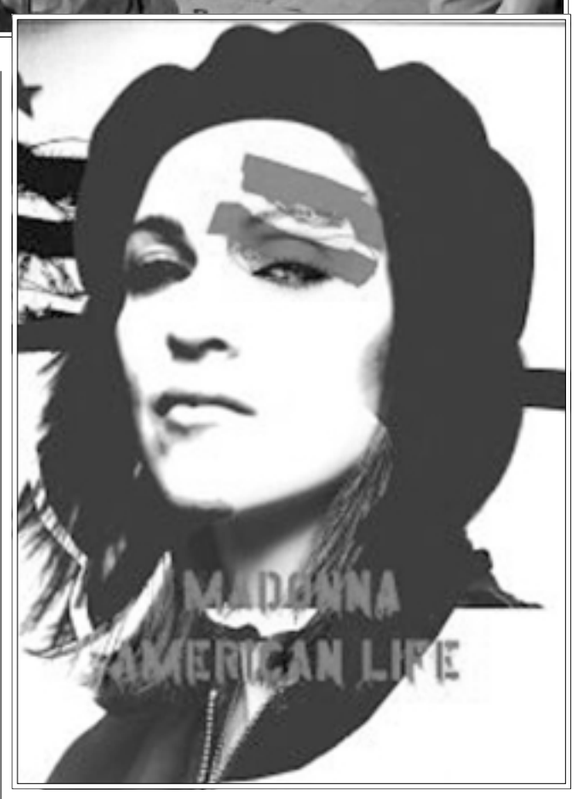

مادونا في صورة مستوحاة من صورة تشي جيفارا

ولكن غير المفهوم هو دخول ثقافة السوق والاستهلاك للتعامل مع تشي غيفارا «البطل الثائر» حيث ظهر على دعايات ايس كريم، وقامت شركة «سيمرنوف» للبيرة بانتاج ماركة جديدة مع صورته وتحت شعار «حار وناري» في اشارة الى المعنى الباطن لهاتين الكلمتين في الثقافة اللاتينية والذين تزاوجان فكرة الجنس والثورة، ولهذا قام كوردا برفع قضية ضد الشركة وحصل منها على مبلغ 50 الف جنيه تبرع بها لصالح الخدمات الصحية في بلاده. تاريخ الصورة يبدأ في عام 1968 عندما بدأ فنانون بالتعامل معها وادخالها في بناء اعمالهم الفنية مثل الايرلندي جيم فيتزباتريك الذي قابل تشي غيفارا في طريقه للصين، وكان تشي غيفارا الذي يعود جزء من عائلته لايرلندا حريصا على تأكيد هذه الصلة وقد انتج لوحة بناء على صورة كوردا، ومن هذه الفترة اصبحت صورة تشي غيفارا اشهر صورة تم التعامل معها فنيا، او بصريا من خلال التصميم واعادة الانتاج بشكل لم يحدث لاية صورة في تاريخ الفوتوغرافي، وحافظت على جاذبيتها الثورية، باعتبارها تعبيرا عن المقاومة، وظهرت في ربيع براغ، في مظاهرات في العالم العربي، في انتفاضات الحركات الراديكالية في امريكا اللاتينية، وكانت مصدر إلهام لفناني البوب، فاوزي اوزبورن، المغني البريطاني المعروف عندما ظهر مع عائلته في الحمام، كان ابنه يرتدي قميصا عليه صورة غيفارا، كما تمت قولبة صورة المغنية الامريكية شير بناء عليها وكذلك مادونا، وظهرت الصورة على علب السجائر، الولاعات، السيجار، لعب اطفال، حقائب نساء، وعلى صدر عار لراهبة، انها صورة سائلة مائعة قابلة للتطويع، والتمظهر في اكثر من مثال. ومن هنا يلاحظ مؤرخو الصور الفوتوغرافية ان جماليات الصورة التي لم يستفد منها صاحبها بشيء جاءت من خلال التوتر بين ثقافتين، الاستهلاك والثورة، ومنذ ان قدم كوردا نسخة من هذه الصورة للناشر الايطالي جيانكامو فيلترينللي عام 1967 وبعد مقتل الثائر ادخل الصورة في الوعي البصري العالمي، وقد بيع من البوستر منذ تلك الفترة ملايين النسخ، ووصل حد الاقبال عليها في عام 1968 كما يقول مؤرخ البوسترات الامريكي ديفيد كانزل حدا من الهستيريا حيث كان يباع منها في الشهر مليون ملصق. ويبدو ان الاقبال عليها مرتبط بحركة الشباب العالمية، وثورة الطلاب الفرنسيين. ومن هنا فان ادخال الصورة بهذه الطريقة، لم يؤد الى انها اصبحت خيارا جيدا للشاب الثائر او الغاضب ولكنه اثر على اصالة الصورة، اذ من خلال التحولات وعمليات المسخ والتحوير، فقدت الصورة الكثير من مفرداتها الاولية التي عبرت عنها صورة كوردا الاصلية ولم يبق الا الاطار الذي صار قابلا للنسخ واعادة الانتاج. ومنذ وفاة تشي غيفارا تم التعامل مع الصورة من خلال مفهوم الثورة والتمرد، والاحتجاج كما في اعمال تحالف الفنانين في نيويورك المعارض للحرب. ولهذا فقد تحولت الصورة كما يقول الناقد الانكليزي المعروف جون بيرغر. كانت بمثابة صورة عن «التصوير البديل» وهو الذي يمكن الفنان او صانع الصور بتطوير استراتيجيات للتعامل مع الصور وتفسيرها بناء على الثقافة الشعبية، ومن اجل التعليم، بحيث تدخل هذه الصورة في الذاكرة السياسية والاجتماعية.. عن هذه الصورة وتاريخها، تفسيراتها، تمظهراتها، اثرها في الوعي الثقافي والسياسي والشعبي العالمي، قدم متحف «فيكتوريا اند البرت» في لندن معرضا جمع كل المكونات التي اسهمت في تأكيد هذه الصورة منذ ان التقطها البرتو كوردا في عام 1960، ومن ثم دخولها في عالم «فوتو ـ غرافيك»، حيث برزت الصورة من خلال الخطوط والنقاط والظلال الحمراء والسوداء، او المرايا المتشظية، او من خلال حلم فنتازي عن امريكا لاتينية واحدة كما في عمل باتريشا اسرائيل والبرتو بيريز، صورة في مركزها صورة تشي بالبيريه، او صورة على اطارات متدرجة كما في عمل كوبي ادخل في حيثياته حروفا عربية «يوم المقاومة الباسل»، على خلفية خريطة لامريكا اللاتينية. في بعض الاحيان تختفي ملامح الوجه ويحتفظ الفنان بالاطار، ويحل محلها اسم تشي، و/أو ازهار.

وفي عمل اخر قام باتريك توماس بوضع كل علامات الشركات العملاقة في عمله «استثمار امريكا في كوبا» وتظهر على شكل صورة تشي، ، من كيلوغز، الى ديل، سي ان ان.. وغيرها من العلامات التجارية والاستهلاكية الامريكية. كما يحتفل المعرض بالصور الجدارية لتشي غيفارا، صورة مشوهة للغزو الامريكي لجزيرة غرنادا عام 1983، وصورة جدارية مع عبارة «القائد العام» على جدار في جزيرة ترينداد، او على جدار حجري في بيت لحم، صورة عمال يمسحون صورة لتشي غيفارا في هافانا، او غرفة اصدقاء تظهر امرأة عارية امام تلفزيون وامامها ملصق لتشي غيفارا في كلورادو، امريكا. وصورة لتشي مرسومة على مرآة في حمام، وفي الصين جدار مليء بصور القادة الشيوعيين الصينيين والفيتناميين تتماهى مع صورة تشي. وهناك محور لاستخدام الصورة في الانتفاضات والثورات في المكسيك وفي ايرلندا الشمالية. وبعدها محور عن علاقة الصورة في ثقافة البوب العالمية، هنا نتعرف على تمظهرات واشكال كثيرة، استهلاكية، فنية، شبابية، فالصورة على القمصان على ملاءات الفراش، صور تستخدم تكنيك اندي وورهول فنان البوب الامريكي المعروف، وتمظهرات تشي المتعددة في عالم الشخصيات، تشومسكي، شير، مادونا، ريغان، تشي الثائر الفلسطيني. ان الاشكال والتنويعات التي تظهر صورة تشي غيفارا ويحتفي بها معرض «فيكتوريا اند البرت» تؤرخ لتاريخ الصورة، صدمتها، اثرها على الوعي في العالم وصورة الثائر في هذا الوعي، فقد تحدث البرتو غرانادوس في الفيلم الوثائقي «صديقي العزيز» عن السبب الذي يجعل من تشي غيفارا رمزا حيا على الرغم من وفاته منذ اربعة عقود، فكانته اجابته انه رجل مبدأ وعاش ومات من اجل مبادئه وهذا هو سر الاحتفاء. صورة «الثائر البطل» هي رحلة في وعي العالم وثقافته، الهامشية او الرسمية، وتحكي الصورة قصة عالمنا، هذا منذ وفاته عام 1967. وتصبح الصورة والعرض على علاقة على الاقل في سياقنا العربي مع تداعيات ورموز الحرب الاخيرة، حيث برز السيد حسن نصر الله زعيم المقاومة اللبنانية كرمز تماهى معه الشارع العربي، وهناك تعليقات تحدثت عنه باعتباره ثائرا عالميا، وتشي غيفارا لبناني بملامح عالية. في زمن الصور الكثيرة عن القتل على شواطىء غزة وفي مدن وبلدات لبنان، وصور التعذيب في ابو غريب والحديثة، تبدو صورة الثائر ذات علاقة وتعبر عن هم المقاومة والعذاب.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

تداعيات

حوار دبلوماسي غير دبلوماسي

زيد أبو العلا*

■ رأيت من الأفضل الاتصال بسفير الدولة الذي دعانا إلى حفل استقبال بمناسبة عيد العرش قبل انطلاق الهجمة المعدة سلفا لتدمير لبنان، وتصادف أنه يلي يوم مجزرة قانا الثانية في الثلاثين من شهر تموز (يوليو) عام 2006. وبعد المجاملات الهاتفية المبتذلة في مكالمات كهذه قلت موضحا سبب اتصالي بأنني قد قرأت خبرا في حاشية إحدى الفضائيات العربية التي تعرض تقاريرها صور تدمير لبنان وما يحدث في فلسطين تفيد بأن جلالته قد أمر بإلغاء الاحتفالات تضامنا مع الشعب اللبناني، فهل ما زالت الدعوة قائمة؟ فأجاب سعادته مؤكدا صحة ما قرأته، لكن الأمر يتعلق بالاحتفالات غير الرسمية والموسيقى والرقص وما إلى ذلك، أما الاحتفال الرسمي كدعوة الاستقبال فما زالت في موعدها ونأمل تشريفكم.

كلفتني زوجتي بمهمة الاعتذار من صديقتها زوجة سعادة السفير نظرا لارتفاع ضغط دمها، ولما كان هذا الأمر قد تفاقم لديها منذ أول هجمة على قطاع غزة قلت: كيف اقنع صديقتك بحجة لست مقتنعا بها؟ قالت بصراحة غير معهودة: لست بحاجة إلى أي توضيح في مثل هذا اليوم بالذات.

كان لقائي الأول في هذا الحفل مع أحد كبار موظفي الأمم المتحدة، ولما كان الوضع لا يحتمل الكثير من المجاملات، قلت إنني قد توقعت أن يتقدم السيد كوفي عنان باستقالته بعد رفض مجلس الأمن الاستجابة لبيانه باتخاذ قرار بوقف فوري لإطلاق النار يوم أمس الأحد، فأجاب بهدوء: يبدو أنك نسيت الحملة التي أدت إلى هزيمة بطرس غالي حين اعتقد أن بإمكانه انتقاد أحد أعضاء المجلس المتميزين بحق النقض حول موقف بلاده من مجزرة قانا قبل عشر سنوات، فتسرعت بالقول لكن كوفي عنان قد استنفد فرصته ولن يكون مرشحا للمرة القادمة فقال: لا أريد أن أتهمك بالعناد في موقعك هذا لكوني ألاحظ أن ذاكرتك لا تستعيد واقعة السيد داغ همرشلد الذي أسقطت طائرته قبل قرابة نصف قرن لأنه كاد أن ينتقد موقف دولة عظمى لها حق النقض في مجلس الأمن ذات يوم. كأنك تتهم كوفي عنان بالجبن!! لك أن تفسر كما تشاء.

ابتلعت هزيمتي وانسحبت متعللا بحاجتي لرؤية أحد الزملاء فداهمتني سفيرة دولة أوروبية لا تزال سياسة بلادها تنسجم مع موقفها الأخلاقي، وحيث كانت علاقتي بها تسمح بالحديث بدون مقدمات، فقد أجبت على سؤالها بأنني أرى نفسي ملزما بتقديم التعازي لوفاة مجلس الأمن، فقالت: سبقتني قبل أن أتقدم بالعزاء لوفاة الجامعة العربية!! دافعت عن عروبتي بأن جامعتنا الموقرة لا تملك الحق بإصدار قرار لوقف فوري لإطلاق النار فردت الكرة بأن الجمعية العامة للأمم المتحدة التي يستطيع أعضاء جامعتكم الموقرة الدعوة لانعقادها قد اتخذت قرارا بتشكيل قوة دولية لشن الحرب الكورية باسمها!! لم استسلم وقلت: إذا كان مجلس الأمن قد عجز عن مجرد إصدار بيان لشجب القتل المتعمد لجنوده الذين يؤدون الواجب المكلفين به من قبله، فهل سيسمح بصدور قرار عن الجمعية العامة حتى لو كان لشجب مرتكبي مجزة قانا الثانية؟ ابتسمت بخبث وقالت : ثم؟ قلت ليس ثمة ثم، ابتسمت من جديد وقالت: يبدو يا سعادة السفير أنك تقدم التعازي بوفاة جسد قضى نحبه منذ أكثر من نصف قرن بالنسبة لك، استوضحت فأضافت: لعلك الوحيد الذي يجب ألا ينسى بأن هذا المجلس قد عجز عن تنفيذ قرارت المنظمة الدولية، لا أريد القول قرار تقسيم فلسطين، ربما يكفي التذكير بقرار 242 وقرار 338 فهل كنت بانتظار موته إلى الآن؟ ازدرت لعابي وحاولت الاستئذان فسبقتني.

لم أشأ الخوض في سجال آخر ورأيت من الأفضل الاعتذار من صاحب الدعوة بالخروج مبكرا فقابلني موظف سام في إحدى السفارات العربية وسأل كيف فلسطين اليوم؟ أنعشني السؤال لأن أحدا لا يزال يتذكر فلسطين، فسطوت على بيت شعر يمني لعبد الله الجربوني وقلت : ماذا أحدث عن فلسطين يا أبتي / مليحة عاشقاها القصف والعرب.

لم يبتسم ولم أودعه، وفي سبيلي إلى السيارة قلت لا يليق بهذا العصر – المتخم بالعنصرية الأمريكية، من تصريح مندوبها لدى مجلس الأمن الدولي الذي يميز القتلى اليهود عن اللبنانيين إلى تصريح تابع الإدارة الأمريكية ورئيس وزراء الإمبراطورية العجوز بأن وقت إيقاف إطلاق النار سيأتي عندما يقرر مجلس الأمن ذلك ـ سوى منح قارئ هذه الواقعة حق استبدال أحد حروف الكلمة الأولى من العنوان أعلاه بحرف يحركه تبعا لقواعد اللغة.

* كاتب ودبلوماسي فلسطيني يقيم في أديس أبابا

مهرجان الاسكندرية السينمائي يشهد عرض أول فيلم تنتجه سلطنة عمان

■ القاهرة ـ رويترز: يعرض مهرجان الاسكندرية السينمائي الدولي الذي تبدأ دورته الثانية والعشرون الشهر القادم في البانوراما خارج المسابقة الرسمية أول فيلم روائي اماراتي يصور كاملا في البلاد كما يشهد باكورة السينما في سلطنة عمان. وتقتصر المسابقة الرسمية للمهرجان على أفلام من دول البحر المتوسط. وتتنافس على جوائز المهرجان الذي يبدأ في الخامس من أيلول (سبتمبر) عشرة أفلام عربية وأجنبية تمثل فرنسا وايطاليا والبوسنة والهرسك وصربيا والجبل الاسود واليونان واسبانيا اضافة الى أربعة أفلام عربية هي «نظرة» سيناريو واخراج المغربي نور الدين لخماري و«لعبة الحب» للمخرج المصري محمد على و«تحت السقف» سيناريو واخراج السوري نضال الدبس و«يوم اخر» للمخرجة اللبنانية جوانا حاجي وزوجها خليل جريج. وقال سمير شحاته المدير الاعلامي للمهرجان ان الدورة الجديدة التي تستمر حتى العاشر من ايلول (سبتمبر) ستشهد عرض «التجارب الاولى» في مجال السينما في دولة الامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان. وأضاف أن فيلم «طرب فاشن» هو «أول فيلم اماراتي «روائي طويل» يصور بالكامل في الامارات» مشيرا الى أنه ثمرة تعاون عدد من الفنانين العرب فمخرجه الكويتي محمد دحام الشيمري أما صاحبة فكرة الفيلم وبطلته فهي الممثلة المغربية ميساء مغربي.. واسمها الحقيقي أسماء زويتان.. وشارك في التمثيل نجم برنامج ستار أكاديمي سعود أبو سلطان وقام بالتصوير المصري سعيد شيمي. كما أشار الى أن المهرجان سيستضيف بطلي الفيلم ومخرجه. وقال ان المهرجان سيعرض فيلم «البوم» وهو «أول فيلم سينمائي تنتجه سلطنة عمان» وشاركت في انتاجه ثلاث وزارات هي الاعلام والمالية والتراث والثقافة. وأضاف أن الفيلم تأليف واخراج الدكتور خالد عبد الرحيم رئيس الجمعية العمانية للسينما «بالتعاون مع المخرج المصري الدكتور محمد كامل القليوبي أستاذ السيناريو والاخراج بمعهد السينما «بأكاديمية الفنون المصرية» الذي تولى مهمة المستشار الفني للفيلم».

رقص شعبي يقدح من حجر الشمس: «براعم» الرعد تحرق برمادها مقاعد القصر

بسام الكعبي*

■ يرقص طائر الرعد الاسطوري على ايقاع حركة الشمس، يحمل جناحين من لهب ونار وينطلق نحو ملكة السماء في محاولة لنقر جدار قرصها الملتهب لكنه يتحول إلى رماد، تنهض روحه المثابرة بجناحين من ذرات رماده ويواصل تكرار محاولته الاسطورية مرة تلو الأخرى ودون كلل.

أجوبة فلسفية عابثة قد تغرق في البحث عن تفسير لاسطورة العنقاء في توقها بلوغ الشمس: هل ضاقت الأرض أم أن الطائر الحالم تبخر باحثاً عن نقطة شاهقة في السماء ليرقص طرباً بنشوة الانتصار؟ هل مر طائر «الرُخ» الاسطوري عن موتى بلاد الرافدين أثناء تسجيتهم فوق أبراج الصمت ترنو عيونهم إلى الشمس؟ هل كان يعرف طقوس عبادتها لحظة شروقها على النهرين؟

ربما كشف الطائر الاسطورة سر اسطورة كوافو الصيني الذي مات وهو يحاول الامساك بها والدخول اليها. هل علم برقصة الهنود الحمر تحت أشعتها الحارقة لطرد الأرواح الشريرة التي تستهدف البلاد والعباد؟ ربما خَبَر أسرار الحضارة اليونانية بشق صدر رجل وانتزاع قلبه تحت خيوطها الذهبية لضمان انتصار على الاعداء؟ وهل شاهد عذراوات الحبشة يُقدمْن قرابين لملكة السماء لتمنحهم بركاتها على الأرض؟ قد يكون راقب الفراعنة وهم يؤدون طقوس السجود في معابد خاصة؟.. وربما من أجل اضافة اسطورة أخرى على الاساطير، بات الطائر ينهض دوماً من رماده باحثاً عن عش خيالي في قلب الشمس يغرد فيها منفرداً.

طيور الرعد المغردة رقصاً تراثياً بصفوف فرقة «البراعم» للفنون الشعبية استعارت أجنحة العنقاء للتحليق نحو الشمس، وقد تمكنت فعلاً خلال عرض جديد ومثير قدمته في قصر رام الله الثقافي أواخر تموز (يوليو) بحضور جمهورها الواسع، من انتزاع رحلة سحر باتجاه الفضاء عندما أطلقت العنان للأطراف الغضة لتبدع حركة في «رقصة شمس» على ايقاع موسيقى متجددة ومتميزة للبارع طارق الناصر.

تحت أشعة «شمس» طفولية خجولة تتراقص على ستارة سوداء تحجب خلفية المكان وجوار العلمين اللبناني والفلسطيني، افتتحت الصغيرات رقصتهن الأولى «شوربنه» بتعبيرات استغاثة للاستسقاء، يحملن جرارا تدور فارغة حول بئر جافة تظللها شجرة زيتون ومقاعد بسيطة تكشف جميعها سرهدوء الريف وبساطة القرية.. وبحركات جميلة متناغمة تستصرخ الصغيرات هطول المطر، شكل تعبيري آخر لطقوس متعددة تدعو لفك انحباس ماء السماء الذي طال وبات يهدد الزرع والضرع، تواصلت رقصة الاستغاثة حتى امتلأت الجرار وفاضت البئر وارتوى الزيتون على ايقاع الكلمات المناجية:

يا ربنا تبعث غيومك لمرجنا
نقطة مطر لمرجنا يطلع ويكبر زرعنا
الغيث يا شيخ المطر
تا زرعنا يباري الشجر
وتعود أيام السمر
ونعود نجمع شملنا

توالى الرقص بايقاع سريع مبدع تكشفت فيه فكرة كل رقصة منفردة: زيتوني، واردات عالنبع، أبو قذيلة، ليا وليا، على نارك، ظريف الطول، فيما ازداد الشبان والشابات تألقاً أثناء تقديمهم رقصة شمس:

ع سيوفنا رقصت شمس
من مرجنا حتى القدس
نزلت على جدران الحبس
ذاب الحديد من نارها
رفت مناديل النصر
هلت زغاريد الشجر
بطيوفها غنى البشر
يا مرج جايه رجالنا

في حين تزامنت رقصة حيفا وجنين مع اشتداد مواجهة العدوان على الجنوب اللبناني واصرار المقاومة على تحرير الأسرى:

ما بين حيفا وجنين شدينا ظهور الخيل
والخيل تشد وترخي تمحي ظلام الليل
كنعان يجيب الفجر بسيوفو المزيونة
كنعان عقيد الخيل وحرابو المسنونة

شكلت رقصة الخاتمة «تحية».. علامة فارقة للعرض الجديد حين هبطت طيور الرعد الصغيرة على خشبة المسرح لتهدي العرض إلى أطفال الجنوبين: جنوب لبنان وجنوب فلسطين وإلى القرى والمخيمات والمدن المحاصرة بالعدوان إلى المقاتلين الذين يصنعون فجراً لتاريخنا إلى سماحة الأمين الذي لا يلين.. هبطت من السماء تحمل أعلام فلسطين ولبنان والمقاومة تلوح بها على الأرض مبشرة بانتصار قادم رغم المجازر والدمار الكبير.

في زمن القتل الأعمى الذي لا يعرف معنى الرحمة، هناك فسحة أمل تطل من خلف المأساة، تمسح دموع الأطفال وتشحذ همة الشبان وتشد أزرنا وتطلق العنان لانتصار آت.. «براعم» الرعد نجحت بامتياز في اختطافنا عنوة من برامج عدوان الديجتال الذي يفيض دماً على شاشة التلفاز ويزحف نحونا ويغرقنا، وسجلت الفرقة نجاحاً باختطافنا إلى مسرح جماعي واسع أدت فيه تراثاً يفيض عذوبة وانسانية ومنحتنا استراحة قصيرة من التمزق بين بث مباشر لطلقة مدفع وآخر عاجل لقذيفة طائرة.. برهة عبادة لالتقاط الأنفاس من الركض المتواصل بين تنافس محطات اخبارية فضائية وموجات اذاعية وتقارير صحف ورقية وأخرى الكترونية تمنحك فرصة تفحص بريدك المحوسب وهمسات خبرية على هواتف نقالة واشاعات على الثابتة.. يا الهي ما هذا الاعتداء المعلوماتي القاسي الذي كسر كل خصوصيات حواجزنا وبات يسحقنا مع اشتعال كل ثانية؟

شكراً لأصوات سناء ونجاح وصفاء ومحمد الغنائية الرائعة التي تداخلت مع الموسيقى واداء الحركة وكل التقدير للصوت العذب المدوي والحزين الذي أطلقته حنجرة منصور الذهبية فحلق بنا في سماء معبد صامتين مبهورين، والمجد لصور شعرية متدفقة ابداعاً صاغها وسيم لتجدد ابداع الموسيقي طارق فيما احترقت ساحة الرقص تحت خبطات أرجل لافتة ومبدعة للشبان والشابات: شرف، نصير، عطا، باسل واياس الى جانب ثلاثين راقصاً وراقصة صقل عرضهم خبرة مبدعين ومبدعات أفنوا سنوات طويلة من عمرهم ينسجون تاريخ فرقة الفنون الشعبية.. شكراً لكم جميعاً على براعتكم الفنية التي لامست قلوبنا ومنحتنا بارقة أمل تفيض فرحاً لمقاومة ليل طويل يهبط على العواصم من المحيط إلى الخليج..لكن الفجر قادم مهما طال.

رام الله 2006/8/1

* كاتب من فلسطين